

دلائل الإعجاز

وتَهَمَّ نُذُهُ صَمِيرَ عَمْرٍو يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ لَزِيدٍ وَأَنْ يُقَدَّرَ حَالاً لَهُ . وليس كذلك : جاءني زيدٌ وهو يسرعُ لأن السرعةَ هناك لزيدٍ لا محالةَ فكيفَ ساغَ أَنْ تَقْيَسَ إحدى المسألتين على الأخرى قيل : ليس المانعُ أَنْ يكون يسرعُ في قولك : جاءني زيدٌ وعمرٌو يسرعُ أمامه حالاً من زيدٍ أَنْزَّهَ فعلٌ لعمرٌو . فإنك لو أَخَرْتَ عَمْرًا فَرَفَعْتَهُ بيسرع وأوليتَ " يسرعُ " زيداً فقلتَ : جاءني زيدٌ يسرعُ عمرٌو أمامه . وجدته قد صَلَّحَ حالاً لزيدٍ مع أنه فَعِلٌ لعمرٍ وإِنما المانعُ ما عرَّضْتُكَ مِنْ أَنْكَ تَدْعُ عَمْرًا بِمَصْنُوعَةٍ وَتَجِئُ بِهِ مَبْتَدَأً ثُمَّ لَا تُعْطِيهِ خَبْرًا . ومما يَدُلُّ عَلَى فَسادِ ذَلِكَ أَنَّهُ يُؤَدِي إِلَى أَنْ يَكُونَ " يسرعُ " قد اجتمعَ في موضعه الذَّصْبُ والرفُوعُ وذلك أَنَّ جَعْلَهُ حالاً مِنْ زِيدٍ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ وَجَعْلَهُ خَبْرًا عَنْ عَمْرٍو المرفوعِ بالابتداءِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ . وذلك بِسَبِيلِ التَّدَاوُلِ . وَلَا يَجِبُ هَذَا التَّدَاوُلُ إِذَا أَخَرْتَ عَمْرًا فَقُلْتَ : جاءني زيدٌ يسرعُ عمرٌو أمامه . لأنك ترفعُهُ بيسرعُ على أَنَّهُ فاعِلٌ لَهُ . وإذا ارتفعَ بِهِ لَمْ يَوْجِبْ فِي مَوْضِعِهِ إِعْرَابًا فَيَبْقَى مُفْرَغًا لِأَنَّهُ يَقْدَرُ فِيهِ النِّصْبُ عَلَى أَنَّهُ حَالٌ مِنْ زِيدٍ وَجَرَى مَجْرَى أَنْ تَقُولَ : جاءني زيدٌ مسرعاً عمرٌو أمامه . فَإِنْ قُلْتَ : فقد ينبغي على هذا الأصلِ أَنْ لَا تَجِئَ جُمْلَةً مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ حَالاً إِلَّا مَعَ الْوَائِ وَقد ذَكَرْتَ قَدِيمًا أَنَّ ذَلِكَ قد جَاءَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كَلَامِهِمْ فَالْجَوَابُ أَنَّ الْقِيَاسَ وَالْأَصْلَ أَنْ لَا تَجِئَ جُمْلَةً مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ حَالاً إِلَّا مَعَ الْوَائِ . وَأَمَّا الَّذِي جَاءَ مِنْ ذَلِكَ فَسَبِيلُهُ سَبِيلُ الشَّيْءِ يَخْرُجُ عَنْ أَصْلِهِ وَقِيَاسِهِ وَالظَّاهِرُ فِيهِ بِضَرْبٍ مِنَ التَّأْوِيلِ وَنَوْعٍ مِنَ التَّشْبِيهِ . فَقَوْلُهُمْ : " كَلِمَتُهُ فُؤُوهُ إِلَى فِيَّ " إِنَّمَا حَسُنَ بِغَيْرِ وَائٍ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْمَعْنَى كَلِمَتُهُ مُشَافِهَةٌ لَهُ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ : " رَجَعَ عَوْدُهُ عَلَى بَدْوَتِهِ " إِنَّمَا جَاءَ الرِّفْعُ فِيهِ وَالْإِبْتِدَاءُ مِنْ غَيْرِ وَائٍ لِأَنَّ الْمَعْنَى : رَجَعَ ذَاهِبًا فِي طَرِيقِهِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : " وَجَدْتُهُ حَاضِرًا : الْجُودُ وَالْكَرَمُ " فَلِأَنَّ تَقْدِيمَ الْخَبَرِ الَّذِي هُوَ " حَاضِرًا " يَجْعَلُهُ كَأَنَّهُ قَالَ : وَجَدْتُهُ حَاضِرًا عِنْدَهُ الْجُودُ وَالْكَرَمُ . وَلَيْسَ الْحَمْلُ عَلَى الْمَعْنَى وَتَنْزِيلِ الشَّيْءِ مَنْزِلَةً غَيْرَهُ بِعَزِيزٍ فِي كَلَامِهِمْ وَقَدَّ قَالُوا : زِيدٌ اضْرِبْهُ . فَأَجَازُوا أَنْ يَكُونَ مِثَالُ الْأَمْرِ فِي مَوْضِعِ الْخَبَرِ لِأَنَّ الْمَعْنَى عَلَى الذَّصْبِ نَحْوُ : اضْرِبْ زِيدًا . وَوَضَعُوا الْجُمْلَةَ مِنَ الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ مَوْضِعَ الْفِعْلِ وَالْفَاعِلِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ : تَعَالَى : (أَدْعَوْهُمْ وَهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ) لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمَعَادِلَةِ أَنْ تَكُونَ الثَّانِيَةُ كَالْأُولَى نَحْوُ (أَدْعَوْهُمْ أَمْ صَمَتُّمْ)

